زعيم الاقتصاد المصرى

محمد رشدي
عضو مجلس الإدارة المنتدب لبنك مصر[١]

حينما طلب مني أن أكتب عن طلعت حرب – ولي به رباط خاص– تملكتني حيرة بالغة، واكتنفنى حياء أحسست عجزًا عن دفعهما. وفيما أنا على هذه الحال، إذا بناحية كريمة تقطع على طريقى .. تلك هي أن طلعت حرب لم يخلق لأسرته وحدها، بل إتخذ من أمته أسرة، وجعل من نفسه لنا جميعًا أبًا رحيمًا طوال حياته. والكتابة عنه فيها نفع كبير للمجتمع، ومن واجبي أن أبادر، فأكتب وفاء لفضله، وعرفانًا بجميله.

بدأ طلعت حرب حياته العملية، كأي شاب مثقف في عصره، فما كاد يتم دراسته ويحصل على إجازة الحقوق حتى إلتحق بإحدى الوظائف الحكومية. غير أن نفسه الكبيرة الوثابة أبت عليه أن يخلد إلى عمله الرتيب وأن يكتفي من العلم والمعرفة بما حصله من قبل، فأخذ يستغل أوقات فراغه في إستيعاب ما تضمنته أهم الكتب التي أخرجها كبار العلماء والأدباء والفلاسفة والساسة في الشرق والغرب، من السلف والمعاصرين. وحرص على غشيان المجالس والمنتديات الخاصة والعامة للانتفاع بما يتردد

(١)من الدعائم الكبرى لبنك مصر وشركاته ومن كبار الإقتصاديين ورجال القانون المصريين وهو زوج كريمة المرحوم محمد طلعت حرب.

فيها من أفكار وآراء وبما يدور حولها من نقاش وتمحيص. وما لبث قليلًا حتى كانت لديه مكتبة زاخرة بأنفس المؤلفات القديمة والحديثة، وأمست داره منتدى يؤمه نخبة من رجالات العلم والأدب والإجتماع والسياسة. فكان لهذا كله أثر كبير في نفسه غير مجرى حياته، إذ لم يطق صبرًا على قيود الوظيفة وأغلالها، وسرعان ما تحلل منها، وأخذ طريقه إلى العمل الحر.

وفي ذلك الحين، كان مثل هذا الإتجاه يعد مجازفة أو مغامرة غير مأمونة العاقبة، ولم يكن طلعت حرب الشاب المقدام الجسور بالذي يخفى عليه ذلك، ولكنه أقدم عليه بعد طول تفكر وتقدير وتدبير، ووضع نصب عينيه أن عليه رسالة يجب أن يؤديها لبلاده، وهذه الرسالة تقوم على أن مصر يجب أن تبني نفسها بنفسها، لكي تسترد عزتها وكرامتها ومجدها، ومكانتها التي أهلتها لبلوغها عراقة حضارتها ومدنيتها، وخصوبة تربتها، وكثرة الأيدي العاملة المخلصة فيها، وموقعها التجاري والصناعي الممتاز. وهكذا مضى في سبيله الذي رسمه لنفسه، مكافحًا ذلك الجمود الذي جثم على صدور أبناء الوادي فأفقدهم ثقتهم بأنفسهم وأقعدهم عن إستثمار أموالهم في غير الزراعة على أوضاعها الموروثة، وأخذ على عاتقه أن يواصل هذا الكفاح بكل ما أوتي من قوة وصبر وإيمان، إلى أن يبدد ما يساور مواطنيه من الوهم وخشية مباشرة الأعمال التجارية والصناعية، ويصلح ما أفسده الإستعمار والإستهتار في ميادين الإقتصاد القومي، مما أدى إلى تغلغل المصارف المالية والبيوت التجارية الأجنبية في جميع أنحاء البلاد، وإلى تسرب أموال المواطنين إلى خارج ديارهم حيث تستثمر لنفع غيرهم. وكانت هذه الأموال قد جاوز مجموعها مائة وخمسين مليون جنيه، كما هو

ثابت في تقرير المستشار المالي سنة ١٩١٩.

وسيلته في تحقيق الرسالة

إستهل طلعت حرب أداء رسالته في مكافحة صدوف المصريين عن الأعمال التجارية بأن إقترح على صديق له كريم المحتد مرموق في وسطه، هو المرحوم فؤاد سليم الحجازي، أن يفتتحا محلًا لتجارة البقالة والألبان، لكى يضربا لإخوانهما المثل الصالح في ميدان يعود على طائفة كبيرة منهم بالخير والبركات، وكان صديقه هذا عند حسن ظنه به، فإفتتحا ذلك المحل، وسارا في عملهما لا يلقيان بالًا إلى ما يوجه إليهما من نقد مر، ونظرات مملوءة بالسخرية والإشفاق، بل تحدوهما عزيمة صادقة وإيمان وثيق بأن العمل لصالح المجموع يسقط في سبيله كل إعتبار، ولا تؤثر في نفس القائم به المظاهر الباطلة، ثم قاما بدعاية واسعة لفتت أنظار مختلف الطبقات وقضت على كبرياء وإنفة باطلتين، وما هي إلا فترة قصيرة حتى تفتحت عيون الكثيرين على ما في التجارة من خير فأقبلوا عليها في شتى أنواعها، وبذلك تحققت الفكرة التي عمل لها، فنزل وزميله عن محلهما لبعض المصريين.

وبعد عامين، أصدر طلعت حرب في سنة ١٩٠٧ كتابًا كشف فيه عن حاجة البلاد إلى بنك وطني ينشأ بمال المصريين، وتعمل فيه أيدٍ مصرية، وتستخدم فيه اللغة العربية. وقد نبه فيه الأذهان إلى الأموال الوفيرة العاطلة التي يستثمرها الأجانب في غير صالح مصر والمصريين، وناداهم إلى واجب وطنى مقدس هو إستثمار مالهم، والأموال الفائضة في

صالح الإقتصاد القومي، وأبان لهم أثر المال في حياة الأمم وإستقلالها، وشوقهم إلى أن يعتمدوا على أنفسهم في جميع حاجاتهم، وما زال ينشر الدعوة ويجددها في كل مناسبة، حتى كانت الثورة المصرية، فألقى في أحضانها بذور هذه الدعوة المباركة، وهو على يقين إنها ستنبت نباتًا حسنًا بإذن ربها. وكان هذا في ٧ مايو سنة ١٩٢٠، حينما إفتتح البنك وقدر له الوجود.

دستوره في البنك

وقد وقف طلعت حرب في ذلك اليوم التاريخي يخطب المؤسسين المكتتبين وعلية الأمة، فصارحهم بأن البنك لم يقم في مصر إلا ليسد النقص الظاهر في مرافق البلاد الإقتصادية ما إستطاع إلى ذلك سبيلًا، ولينير الطريق أمام المواطنين، وسيعمل على تنظيم الحالة التجارية، وعلى الإكثار من التاجر الذي يعرف قيمة الورقة التجارية والذي يحرص كل الحرص على الوفاء حرصه على الإعتبار والشرف، وليقيم بناء الصناعات شامخًا في ناحيتها النباتية والمعدنية. ثم أوضح في جلاء أن العملية المصرفية البحت لم تكن غايته وحدها، وإن صالح المساهمين لن يقوم حائلًا بين البنك وبين صالح المجتمع والوطن، وإنه سيعتمد في إحياء الصناعات على ثقة المصريين في البنك، وستتجلى هذه الثقة فيما يودع فيه من مالهم الفائض. وعلى هذا بدأ هو وزملاؤه خطواتهم معتمدين بعد الله على عطف الأمة وتشجيعها.

وهناك حقيقة ظلت مطوية طوال السنوات التي مضت منذ إنشاء

البنك، وهي تبرز ناحية من السمو الروحي والإكتفاء الذاتي لطلعت حرب، تلك هي إنه ظل طول السنوات الخمس التالية لإقامة البنك وإنشاء عشر شركات تابعة له لا يتقاضى أى أجر عن عمله المتواصل العظيم!

ولولا أن حملة الأسهم فزعوا إليه برجونه في الحاف أن تكون له مكافأة عن عمله لقاء جهده المضني، ولولا إنهم أعلنوه أن كرامتهم تأبي عليهم تسخيره وطالبوه بأن يجاهرهم بالقبول مشكورًا، لما أجابهم إلى طلبهم، على أنه إشترط ألا يكون القرار أثر عن الأعوام الفائتة.

إن في ذلك لعبرة، وإن فيه لمثلًا صالحًا للرجل الذي يتصدى للأعمال العامة. فيقيني أن الرجل العام يجب أن ينسى نفع نفسه، ويجب ألا يكون أنانيًا تنفر منه الجماعة. ويجب أن يكون التواضع شعاره. وهذه صفات لمسها كل من أسعده الحظ فعمل تحت لواء طلعت حرب. فالحق أن النفع الخاص لم يكن مبتغاه وإنما كان يهدف إلى إحياء الصناعات في مصر، وإقامتها مصرية صميمة لحمًا ودمًا، يفتح بها ميادين أعمال مختلفة للمصريين، ويحارب بها أزمة المتعطلين من المصريين.

وقد وفق في تحقيق هدفه، ورأى بعينيه أن مشروعاته تدر على الشباب المثقف والعمال من أجور ومرتبات ما يقرب من أربعة ملايين من الجنيهات سنويًا.

وهذه القيمة الكبيرة لم يكن لها وجود من قبل. وقد ظل الشعب

المصري محرومًا منها قرونًا عدة، وكان العبء كله على الزراعة والعمل فيها على نظم بدائية. وهذا الرقم الضخم يقوم إلى جانبه أرقام مجهولة. فإن اليد العاملة في الزراعة نقصت نقصًا ظاهرًا. فكان لهذا أثره في إرتفاع أجور العمال الزراعيين. ذلك أن الصناعات التي أنشأها طلعت حرب قد إمتصت عددًا كبيرًا من عمال الزراعة، ورفعت من مستوى معيشتهم حتى وصلت إلى أربعة أضعاف ما كانوا يتقاضونه وهم عمال زراعيون. وفي إمتصاص الصناعة لهؤلاء العمال تقليل لعددهم أفاد بطريقة غير مباشرة في رفع أجور الباقين منهم وتحسين مستوى معيشتهم. هذا إلى الإنخفاض المحسوس الذي أصاب أسعار السلع التي تم صنع نظيراتها في مصر، حتى أن الباحث المدقق ليقدر ما أفاد البلاد من جراء الصناعات التي أقيمت عن طريق بنك مصر بأضعاف ما عرف عنها في الأجور والمرتبات.

وهناك ناحية كريمة سهر على تحقيقها طلعت حرب وهي حماية الثروة الزراعية والعقارية الأهلية من الإنهيار. وبقدر ما كان عليه من حزم وحرص شديد على مال المساهمين، فقد وقف في أزمة سنة ١٩٣٠ إلى جانب كثير من البيوت المصرية، فوقاها العثار وأمنها الشر، بأن مد في الآجال، وخفف الأعباء، وأحجم عن التصفية، ولم يقبض يده حيث وجب البذل، وأزاح عن الكثيرين غاشية الكرب. وكان في هذا كله مخرج كريم لأسر من أعز الأسر.

جهاده في تأسيس الشركات الكبرى

وهكذا نجح البنك، وأقبل المصريون عليه في ثقة وطمأنينة فأودعوه أموالهم من نقد وأقطان وحبوب، وما أحس طلعت حرب بالأموال تختزن في البنك حتى أخذ في تنفيذ برنامجه الذي رسمه في خطبة إفتتاح البنك من إقامة الصناعات وإحيائها في مصر. فأنشأ مطبعة تزود البنك بالسجلات والمطبوعات والأسهم والسندات، وهي تعد الآن أكبر دار للطباعة في الشرق وأحدثها عددًا وآلات. وأقام شركة لحلج الأقطان بدأت عملها في مغاغة بوايور حليج واحد، وهي الآن تدير تسعة وابورات في مختلف المدن التجارية في البلاد.

وأحس بعد ذلك حاجة البلاد إلى نقل الأقطان بأجور معتدلة لا ترهق التاجر المصري، فأقام شركة مصر للنقل والملاحة. وحين كملت هذه الحلقة تطلع طلعت حرب إلى غاية طالما تاق إلى تحقيقها للبلاد، وهي بحق في المرتبة الثانية بعد الغذاء، وقد توافرت مادتها في البلاد وكانت مرتعًا خصبًا للدول الأخرى .. هذه الغاية هي غزل القطن ونسجه وإخراجه كساء للشعب بأسعار لا ترهقه، ومن مادة نقية متينة، إلى غير ذلك من الإعتبارات التي تحول بين أموال المصريين وتسربها إلى الخارج، فأقام شركة مصر للغزل والنسيج بالمحلة الكبرى، وإنها لمفخرة المصريين الآن. وقد روعي في إقامتها ما فات أعرق الأمم في الصناعات، فمن مصنع للغزل، إلى مصنع للنسيج، إلى مطبعة الصباغة والتلوين، إلى الإخراج سلعة تباع. كل هذا في صعيد واحد يشغل رقعة من الأرض تبلغ ٢٢٠ فدانًا.

كفاحه لنجاح الشركات

ومن الخير أن أشير إلى حادث خطير عنى به طلعت حرب وشغل باله، فإن مصانع لانكشير وبرادفورد فزعت حين ترامت إليها أخبار هذه الشركة من حسن إستعدادها وما ستكون عليه من إنتاج لسد حاجة مصر وجانب كبير من الدول الشرقية، فأعدوا العدة للقضاء عليها، وكان أن إتحدت مصانع القطن في إنجلترا وإتفقت على إقامة شركة لها في مصر تناهض شركتنا العزيزة وهي ما تزال تحبو، فلما أحس طلعت إنهم بدأوا تنفيذ مؤامراتهم أوحت إليه خبرته ونفاذ بصيرته بالسفر إلى إنجلترا، وبعد دراسة وبحث تم الإتفاق بينه وبين هذه الشركات على قصر عمل الشركة الإنجليزية على الطباعة والصباغة للغزل والنسيج الرفيع من القطن المصري، وعلى أن تقام إلى جانبها شركة مصرية جديدة لغزل ونسج هذا الصنف من الخامات. وفعلًا أنشئت شركة صباغي البيضا، وشركة كفر الدوار، وبهذا هدأت نفس طلعت حرب.

ولما تمت هذه الجولة الكريمة رأى طلعت حرب أن القطن في البلاد يفيض كثيرًا عن حاجة المصانع فأقام شركة لتصدير هذا الفائض.

وفي العام نفسه الذي أقام فيه شركة لغزل القطن ونسجه بالمحلة، أقام شركتين لصناعتي الكتان والحرير، وبهذا تمت حلقة من الشركات تحقق للبلاد الفائدة المرجوة من محصولاتها الرئيسية وتضمن للشعب كساءه بأسعار غاية في الإعتدال.

ولما أحس طلعت حرب أن سلع شركات القطن والحرير والكتان تواجه حربًا خفية في داخل البلاد، إذ أحجم الكثير من التجار عن شرائها، أقام شركة لبيع مصنوعات شركاته، فتتحقق لها النجاح بفضل الله، وكان أثرها عظيمًا أبان الحرب الأخيرة.

ثم إتجه طلعت حرب إلى نواح مختلفة من الإقتصاد القومي، فأقام شركة لصيد الأسماك وصناعة الأزرار، وشركة لإستخراج الرخام والجرانيت والبترول والكروم والمنجانيز. كما أقام شركة الطيران كان منها عامل عظيم في توثيق الرباط بين مصر وفلسطين والشام والعراق، وكذلك أقام شركة مصر للتأمين، وقد أصبحت تسد فراغًا كبيرًا وتقوم بالتأمين لصالح شركات البنك والمصريين عامة، وآخر شركاته شركة مصر لصناعة وتجارة الزيوت.

لقد أساء بعض الناس فهم رسالة طلعت حرب، ورموه بالتعصب لمصريته، وإصراره على إحياء الصناعة في مصر بأيد مصرية ومال مصري، كما رموه بأنه يكره الأجانب لذاتهم ولا يرغب في التعاون معهم. والحقيقة أن طلعت حرب كثيرًا ما نادى بأنه يرحب بالتعاون مع الخبراء الأجانب، وقد إستخدمهم في مختلف النواحي التي لا يحسنها المصري، لكنه كان تعاونًا موقوتًا زال حين توافر لديه المصريون فسدوا الفراغ الذي كانوا يشغلونه. وتحقيقًا لهذه الغاية أوفد إلى الخارج بعثات في مختلف الصناعات، وفي مقدمتها الغزل والنسج وإدارة وخدمة الفنادق والسينما، ثم هو علاوة على إستعانته بالخبراء الأجانب أشرك الأجانب معه في كثير من الشركات، كشركة الطيران، وشركة التأمين، وشركة الغزل والنسيج الرفيع، وشركة تصدير الأقطان.

عنايته بالمسرح والسينما

كان من يرى طلعت حرب، وهو رجل العمل والكفاح والجد، يظنه رجلًا عبوسًا لاتستهويه الفنون والموسيقى، ولا يطربه الغناء والصوت الجميل، لكن تاريخ هذا الرجل على النقيض من النظرة العابرة، فإنه وهو القائم على هذه الأعمال الجبارة، والمنشيء لهذه المشروعات الضخمة، لم تفته ناحية الفنون وما لها من أثر في حياة الشعوب ورقيها، فقد إعتز بالفنانين وحباهم بعطفه وأمدهم بماله. وحين رأى إنهيار المسرح المصري أقام شركة مصر لترقية التمثيل العربي، ولما طغت السينما بلغاتها الأجنبية على التمثيل أنشأ في سنة ١٩٢٥ شركة مصر للتمثيل والسينما، وجهزها بأحدث الآلات حتى ضارعت أمهات الشركات في أوربا وأمريكا.

وقد أبت عليه نفسه إلا أن تكون الروايات والقصص أداة طيبة للثقافة والأدب الرفيع .. فأحدثت هذه الشركة فتحًا لطبقة الممثلين وغيرهم من الفنانين، حتى أصبحنا نرى بين المصريين عددًا من الممثلين والفنانين يبلغ دخله من الفيلم الواحد آلاف الجنيهات، بل لقد تجمعت لبعضهم ثروات كبيرة، وكان من أثر قيام هذه الشركة أن أنشئت دور أخرى لصناعة السينما، وهي وإن كانت قد توخت الناحية المالية، فإن هذه الأموال كلها من المصريين وإليهم، وقد حقق وجود هذه الشركة فوائد كثيرة في نواح عدة.

البنك الصناعي

ولطالما نادى طلعت حرب بأن للبشر طاقة، وإنه وجماعته وأنصاره لا يستطيعون النهوض بإحياء جميع الصناعات على إختلاف أنواعها، وقد أهاب بالحكومة أن تخطو الخطوة الأولى لتنمية الصناعات الأهلية وحمايتها، وذلك بإقامة البنك الصناعي، ووضع كتابًا في ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٩ يقع في ٢٢٥ صحيفة أسهب فيه هو وجماعة بنك مصر في شرح النظم المعمول بها والمتبعة في أمهات دول الغرب، وكشف فيه عما يجب أن تكون عليه علاقة الحكومة بالصناعات، محددًا نصيبها ونصيب الشباب منها، وإنتهى الكتاب إلى الضرورة الملحة لإنشاء بنك صناعي لتمويل الصناعات التي لم تبعث بعد، ولتنمية الصناعات القائمة حينذاك، كما عاهد الحكومة على معاونة بنك مصر للبنك الصناعي إلى أن ينهض على قدميه، فيصبح أخًا وفيًا لبنك مصر، ويرتفع مستوى المعيشة، وترقى حياة الأسرة، ويحس الأفراد والجماعات بالسعة في الرزق ويعم الرخاء أرجاء البلاد.

طلعت حرب السياسي

وكان طلعت حرب سياسيًا من طراز خاص، فهو وإن كرس حياته كلها للعمل في ناحية هي بحق أساس الإستقلال وعماد الكرامة والعزة القومية، كان ينادي بضرورة إتحاد أمم الشرق وتكتله حتى يسترد مكانته، وقد بدأ عمله لتحقيق هذه الفكرة بإنشاء «بنك مصر سوريا ولبنان» ليكون منه السفير الصالح للرباط الذي يرجوه، ثم أقام شركة مصر للملاحة البحرية تربط بين مصر والمملكة السعودية، فضلًا عما أنشأته من

صلات بين مصر وأوربا.

وقام برحلات إلى الحجاز جعلت منه أخًا محبوبًا لدى أهلها، وبذلك قرب بين البلدين وقضى على ما كان بينهما من جفاء. كذلك قام طلعت حرب بزيارات عدة لكل دول الشرق، عاملًا على التوحيد بينها والألفة بين أبنائها. وهذا النوع من السياسة نوع عملي ناجح أفادت منه البلاد، وإمتد أثره حتى كانت الجامعة العربية .. وكان إتحاد دول الشرق.

ولم يقف نشاطه السياسي عند هذا الحد، بل إمتد إلى الغرب، إذ رأى أن بلاده في حاجة إلى الدعاية الدائمة.

ولن يكون هذا في خطاب يلقى أو مقال ينشر، بل بعمل مادي ملموس و أثر ظاهر محسوس، فأنشأ في باريس «بنك مصر فرنسا» فكان منه الدعاية الناطقة بأن مصر غيرها بالأمس، علاوة على الخدمات الكثيرة التي أداها للمصريين في الخارج.

وكان طلعت حرب إلى ذلك كله حريصًا على ألا يخلط بين السياسة والعمل، فصرح غير مرة بأنه يجب أن تكون التجارة والصناعة في هذا البلد في منأى عن السياسة الحزبية.

ولا يفوتني أن أسجل لطلعت حرب موقفًا كريمًا جديرًا بالتقدير، قمينًا بأن يتخذ مثلًا صالحًا لمن يعمل في مقدمة الصفوف منكرًا لذاته، مؤثرًا عليها العمل النافع، فحينما إعترضت البنك تلك الأزمة المعروفة في سنة ١٩٣٩ عقب قيام الحرب الأخيرة، ولحقت به مفتريات ما أنزل الله بها من

سلطان، وحينما أساء إلى طلعت حرب نفسه بعض الحساد والحاقدين، بقي هو قوي الإيمان بنفسه وبمتانة مركز البنك، كبير الثقة بأن الحقيقة سيكشف عنها الناس. ذلك إنه لم يفكر في شخصه عند هذه الكارثة، ومع الإلحاح الكبير من مريديه عليه في أن يتكلم، أبى ألا أن يلزم الصمت وكان يكرر دائمًا: «أن الفناء مصير كل حي، وما أريد إلا الحياة للبنك وشركاته، وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون».

وما هي إلا فترة قصيرة بعد تنحيته عن البنك حتى ذهب الزبد جفاء، وأمن البنك والشركات ما حيك لها من دسائس، فخرج مع شركاته منتصرًا ظافرًا، ترد جميعًا بحيويتها الكامنة على هذه المفتريات، وتدل على أن هذه المؤسسات كانت متينة البنيان، قوية الأساس، وأن المهيمنين عليها كانوا من خيرة الرجال.